مجلة التراث

J-ALT

2018/ Vol:8 N°01

Available online at: http://www.asjp.cerist.dz

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/323

التّراث الثقافي الفلسطيني بين الطمس والإحياء

(مفهومه, أنواعه, أهميته)

م.م اسماعيل شيخي شيخي أوسي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الفنون والآثار،

الجامعة اللبنانية في بيروت. لبنان.

مجلة التراث، العدد 29 / ديسمبر 2018، المجلد الأول الجزء الأول

لتوثيق هذا المقال:

م.م اسماعيل شيخي شيخي أوسي ، التّراث الثقافي الفلسطيني بين الطمس والإحياء (مفهومه, أنواعه, أهميته)، **مجلة التراث**، العدد 29، المجلد الأول، ديسمبر 2018.

تاريخ الإستقبال: 2018/06/03

تاريخ التحكيم: 2018/12/15

تاريخ قبول النشر: 2018/12/29

الملخص:

لكل شعب من شعوب الأرض حضارة وتراث يفتخر به ويعتز به وللشعب الفلسطيني حضارة عريقة وتراث فني كبير يدل على هويته الثقافية والسياسية في آن معاً. وقد أدت التراث الثقافي الفلسطيني دوراً هاماً في تعميق الشعور بالانتماء للوطن وللتاريخ. وشكل هذا التراث هدفاً رئيساً لمحاولات الطمس والإيذاء والتعتيم والمسح وتتخذ هذه الممارسات من خلال التهويد أو اضفاء الصبغة الاسرائيلية على هذا التراث وكذلك إلغاء فلسطينية هذا التراث وعروبته وإضعافه ومحوه. وكل ذلك كان يهدف إلى خلق صلة ما بين اليهود والأرض وكسب الاعتراف العالمي بهذه الصلة، من جهة، ومن جهة أخرى إضعاف الصلة بين الشعب الفلسطيني وبين أرضه، بل بترها كلياً وقطعياً، وتقوم بهذه الممارسات هيئات كثيرة ومتعددة من وزارات ومكاتب حكومية رسمية أو شبه رسمية إلى مؤسسات وجهات علمية واجتماعية من كل صنف ولون.

وبالتالي هدفت الدراسة إلى التعرف على تأثير الممارسات الاسرائيلية على التراث الفلسطيني التي عملت على طمسه وتشويه وتزويره, وكيف أسهم هذا التراث بتنوعه بإيصال رسالة الشعب الفلسطيني إلى العالم من خلال تحديه أشكال الطمس والتهويد والتزوير كافة. كما هدفت الدراسة إلى إبراز دور التراث في الحفاظ على الهوية الوطنية وكيف شكل التراث أحد أدوات المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الاسرائيلي ومخططاته. لأن أهمية هذه الدراسة تعود في أن تناولها موضوع التراث واجباً وطنياً، لأنه يشكل جزءاً هاماً من ثقافة الشعب الفلسطيني، ويؤدي إلى تعميق الشعور بالانتماء للوطن، مما يحتم دراسة التحديات التي مر بها هذا الشعب ولا يزال لإثبات حقه في الأرض والتاريخ الذي تقوم إسرائيل بطمسه.

الكلمات المفتاحية:

التراث الثقافي, التراث المادي, الثقافة, الهوية الوطنية, القضية الفلسطينية, التهويد, العروبة

Abstract:

Each of the peoples of the Earth has a civilization and a heritage which is proud and proud of it and the Palestinian people have a long-standing civilization and a great artistic heritage that attests to its cultural and political identity. The Palestinian cultural heritage has played an important role in deepening the sense of belonging to the homeland and to history. This heritage is a major goal of the attempts to obliterate, harm, obscure and survey. These practices are taken through the Judaization or the Israeli class on this heritage, as well as the abolition of the Palestinian heritage and its Arabism and its addition and erasure. The aim was to create a connection between the Jews and the land and to gain universal recognition of this connection, on the one hand, and on the other, to weaken the link between the Palestinian people and their land, To scientific and social institutions of every kind and color. The study aimed at identifying the impact of Israeli practices on the Palestinian heritage, which has worked on five distortions and falsifications, and how this heritage contributed to its diversity by conveying the message of the Palestinian people to the world by defying the forms of obliteration, Judaization and counterfeiting as a scourge. Heritage is one of the tools of the Palestinian resistance against the Israeli occupation and its plans. Because it is an important part of the culture of the Palestinian people and leads to a deepening sense of belonging to the homeland. It is imperative to study the challenges that this people have undergone and continue to prove their right to the land and the history that Israel is obliterating.

Key words:

Cultural Heritage, physical heritage, the culture, National Identity, The Palestinian cause, Judaization, Arabism

مقدمة:

فلسطين كانت وما زالت دائماً ملتقى الحضارات على مر العصور، وهناك الكثير من المواقع الأثرية والتاريخية الهامة تنتمي إلى العصور المختلفة. فالمدن الفلسطينية مثل القدس وغزة واريحا والخليل من أقدم مدن العالم ، لذلك نجدها غنية بآثارها من الحضارات المختلفة على مر التاريخ من الحضارة الكنعانية إلى الحضارات الإغريقية والرومانية والإسلامية ، والكثير من الحضارات الأخرى، التي خلفت الكثير من الآثار المعمارية، كالمدرجات والمعابد والكنائس والمساجد والمقابر وآبار المياه وقنوات الري والمنازل والكثير من الآثار التي أصبحت أمكنة تجذب السياح من أنحاء العالم المختلفة لزيارة الأماكن المقدسة التاريخية ، مثل المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وكنيسة القيامة في القدس ، وكنيسة المهد في بيت لحم ، والكثير من المقابر القديمة والمزارات المختلفة[1] .

تقع فلسطين في مكان متوسط من العالم واكتسبت بهذا الموقع الفريد أهمية خاصة بالنسبة الى طرق المواصلات الدولية منذ قديم الزمان، فتحولت الى بوتقة لالتقاء الشعوب وتفاعل الحضارات مما يكسب آثارها أهمية كبيرة في معرفة الحضارات والمجتمعات التى نشأت وتطورت فيها وأثرت عبر العصور في الحضارات العالمية. تعد الآثار احدى ميادين الصراع الايديولوجي الرئيسية في فلسطين, على مدار مئة عام من النشاط الأثري في فلسطين ونحو خمسة عقود من النشاط الاسرائيلي في الأراضي الفلسطينية بعد عام 1967، جرت تنقيبات أثرية منظمة إنقاذية في مئات المواقع الاثرية، في انتهاك صريح للقانون الدولي، وكان الهدف من التنقيبات إعادة كتابة تاريخ هذه المواقع بما يخدم الإدعاءات الاستيطانية الصهيونية في فلسطين، من خلال خلق صلة بين الماضي والحاضر، أما الوجه الاخر للنشاط الاثري الصهيوني فقد تجلى في نهب الموارد الاثرية ونقلها أو الاستحواذ عليها في نطاق المستوطنات الاسرائيلية والمعسكرات، أو ضمها بالجملة خلف جدار الفصل العنصري. وقد أدت عمليات الاتجار غير القانوني الى تدمير السياقات الأثرية الفلسطينية، من خلال تحفيز عمليات التنقيب غير الشرعية. ويعالج هذه البحث موضوع التراث الثقافي الفلسطيني الملموس بين الطمس والأحياء، بين المحنة والمنحة. يطلق التراث على مجموع نتاج الحضارات السابقة التى يتم وراثتها من السلف لها الخلف, وهي نتاج تجارب الانسان ورغباته وأحاسيسه سواء كانت في ميادين العلم او الفكر او اللغة او الأدب وكذلك يشمل جميع النواحي المادية والوجدانية للمجتمع من فلسفة ودين وفن وعمران وتراث فلكوري واقتصادي. وبالتالي فإن التراث ليس الطابع او الخصائص القومية بل هو اعمق من ذلك، فهو يعبر عن مجموع التاريخ المادي والمعنوي لحضارة معينة منذ اقدم العصور، فكثير هي الحضارات التى حكمت منطقة او مكان واحدة ومع ان هذه الحضارات ولت إلا أن التراث هو الوسيلة الوحيدة او البصمة المميزة التى أعطت لتلك الحضارات شخصيتها والتى استطعنا ان نستدل على عظم هذه الحضارات من خلال مبانيها الاثرية أو أساطيرها المكتوبة التى وصلت إلينا .

تعد فلسطين, كما أسلفنا, من أغنى الدول في العالم بنتاج هذه الحضارات، رغم صغر مساحتها, وذلك لموقعها الهام والمميز، حيث تربط بين قارتي آسيا وأفريقيا، وهذا أدى إلى إقامة علاقات تاريخية وثيقة وطويلة الأمد مع المناطق المجاورة، ويزيد أهميتها اعتبارها مهداً للديانات السماوية الثلاث، حيث سكنها العديد من الأقوام والشعوب وبذلك تضم عدداً كبيراً

من المواقع الأثرية والتاريخية بالإضافة الى مدنها التاريخية الهامة كالقدس وبيت لحم والخليل ونابلس، وباعتبارها جزءاً من تراثنا الحضاري والثقافي المادي، فيجب المحافظة عليها والاهتمام بها، ولكن للأسف لا نجد كثير من يقدرون أهمية هذه الثروة، فيعتبرها البعض أنها مجرد عقبة في طريق التخطيط الحضري، والبعض الأخر يعتدي عليها بالتنقيب غير المشروع وغيره، مما يفقدها الكثير من قيمتها الأثرية، كما غياب الوعي الشعبي بالنسبة للأهمية الآثار والحفاظ عليها ونقص الموارد المالية والكوادر المؤهلة يلعب دوراً كبيراً في ذلك. ويظهر دور الاحتلال الإسرائيلي وما يقوم به من تدمير ضمن سياسته وممارسته غير القانونية، حيث دمر كثيراً من المواقع الأثرية، سواء بمنع الجهات الفلسطينية في المحافظة عليها، أو بهدمه هذه المواقع من خلال الاجتياحات المتكررة للمدن، أو ببنائه للمستوطنات وشق طرقها الإلتفافية، حيث كان لها الدور الأكبر في تلك الكارثة، ويعتبر بناء جدار الفصل العنصري الشاهد الأوضح على هذه الانتهاكات، حيث أن العديد من المواقع الاثرية موجودة في نطاق الجدار، وتبرر السلطات الإسرائيلية للرأي العام أن دائرة الأثار الفلسطينية، تقوم بإجراء حفريات إنقاذية وعاجلة في المواقع التي تكتشف اثناء بناء الجدار، ولكن هذه الحفريات غير دقيقة ولا تخضع لعملية التوثيق ولا تتفق مع الأسس العلمية للعمل الأثري، كما أنها تخترق مبادئ حماية المواقع الأثرية ضمن التشريعات والقوانين المحلية والدولية[2].

مفهوم التراث الثقافي:

يطلق لفظ التراث على مجموعة نتاج الحضارات السابقة التي يتم وراثتها من السلف الى الخلف, وهي نتاج تجارب الإنسان ورغباته وأحاسيسه سواء أكانت في ميادين العلم أو الفكر أو اللغة أو الآداب وليس ذلك فقط بل يمتد ليشمل جميع النواحي المادية والوجدانية للمجتمع من فلسفة ودين وفن وعمران ... وتراث فلكلوري واقتصادي أيضا. والأصل من التراث هو كلمة مأخوذة من (ورث) والتي تعني حصول المتأخر على نصيب مادي أو معنوي ممن سبقه. اما الأصل التاريخي لكلمة تراث فهي تعود إلى أقدم النصوص الدينية حيث وردت هذه الكلمة في القرأن الكريم (وتأكلون التراث أكلا لما) (سورة الفجر، آية 19) حيث كان المقصود بها الميراث[3]. وكان الأصل في البداية استخدام لفظ الميراث نيابة عن كلمة التراث ولكن مع تقدم العصور أصبحت (التراث) هي الكلمة الأكثر شيوعا للدلالة على الماضي وتاريخ الأمة وحضاراتها وما وصل الينا من الحضارات القديمة سواء أكان هذا التراث متعلق بالأدب أو العلم أو القصص (أي كل ما يمت للقديم). أما عن المعنى المعاصر لكلمة تراث فهو (التراث الفكري المتمثل في الآثار المكتوبة الموروثة التي حفظها التاريخ كاملة ومبتورة فوصلت إلينا بأشخاصها). ومن الجدير بالذكر ان التراث هو ليس الطابع أو الخصائص القومية بل هو أعمق من ذلك فهو يعبر عن مجموع التاريخ المادي والمعنوي لحضارة معينة منذ أقدم العصور فكثير هي الحضارات التي حكمت منطقة أو مكان واحد ومع هذه الحضارات قد ولت إلا أن التراث هو الوسيلة الوحيدة أو البصمة المميزة التي أعطت لتلك الحضارات شخصيتها والتي استطعنا أن نستدل على عظم هذه الحضارات من خلال مبانيها الأثرية أو أساطيرها المقولية التي وصلت إلينا[4].

أنواع التراث الثقافي :

1- التراث المادي الثابت :

يتمثل في المعالم والمواقع الاثرية منها المباني ذات الطابع المدني والديني والعسكري والتي تتميز بقيمتها وطابعها الاثري والتاريخي والمعماري والديني والجمالي، وعموما فهي تشمل جميع المعالم التاريخية والمواقع الاثرية والمجموعات الحضرية او الريفية، ومنها المعالم التاريخية الظاهرة فوق سطح الأرض والتي ارتبطت بحادثة مهمة او شخص مهم وهي تعتبر ضمن الموارد التراثية وتتفاوت أهميتها تبعا لعمر المعلم ونوعه وحالته[5].

اما عن المجموعات الحضرية او الريفية والتي يطلق عليها القطاعات المحفوظة فهي عبارة عن منطقة تجمع لمجموعة من المباني التاريخية كالقصبات والمدن والقصور والقرى والمجمعات السكنية التقليدية والتي لها أهمية تاريخية او معمارية او فنية او تقليدية[6].

2- التراث المادي المنقول :

ويتمثل في القطع المنقولة والتحف الفنية والناتجة عن الاستكشافات والأبحاث الاثرية في البر وتحت الماء ومنها القطع الخزفية والفخارية والكتابات الاثرية والعملات والأختام والحلي والألبسة التقليدية والأسلحة وبقايا المدافن والمخطوطات ووثائق الأرشيف[7].

3- التراث اللامادي :

ويتمثل في الموارد الثقافية والمعارف والابتكارات وممارسات المجتمعات. وللتراث اللامادي أهمية كبيرة للاهتمام به في ظل العولمة والتحول الاجتماعي فهو تعبير صادق عن عادات وتقاليد وثقافة الشعوب وهويتها وانتمائها الحضاري[8].

من أهم العناصر الشائعة للتراث المادي هو:

أ-كل ما شيده الأجداد من عمائر، الدينية كالمساجد والكنائس، دور العلم والأضرحة والزوايا والخانقات والتكايا وعمائر أخرى كالقصور والمنازل والأسواق والخانات والمراكز الصحية والحمامات والسبل[9].

ب-الحرف اليدوية والصناعات التقليدية التي يتم صناعتها بالاعتماد على المواد الخام الموجودة في المنطقة كصناعة الصابون والزيت في نابلس وصناعات أخرى في مختلف أرجاء فلسطين كالخزف والفخار والنحاس والزجاج والصياغة والحياكة والتطريز والنسيج والغزل.

ج-الأزياء الشعبية كالثوب الفلسطيني الذي كان يعد اللباس التقليدي للمرأة الفلسطينية بينما كان القمباز اللباس التقليدي للرجل، وتضم وسائل الزينة والمطبخ الفلسطيني بأدواته المختلفة والطابون والفنون الأخرى المختلفة[10] .

وبالتالي التراث هو مجموع النتاج الفكري لأبناء الشعب فهو يعبر عن ابداعاتهم على مر العصور في مختلف المعارف سواء أكان في العلوم الدينية والفقهية والفلسفة واللغة والأدب والشعر والتاريخ والزراعة وحتى التشريعات القضائية والحكايات والأمثال الشعبية وغيرها من العلوم التي ارتبطت بشكل مباشر مع الانسان وواقعه وحياته اليومية[11].

الفنون الشعبية الفلسطينية هي من أقسام التراث المهمة والضرورية جدا لما لها من دور كبير، حيث هي قوة قومية لشعبنا، بالإضافة الى أهميتها كقوة أيضا فهي حصيلة وجدان ومشاعر شعب بأكمله، حيث كانت تلك الفنون من الوسائل المهمة للتعبير عن أفراحهم وأحزانهم والامهم وأمالهم وخيبات أملهم أيضا من عمليات التأمر المستمرة على شعبهم، ومن تلك الفنون الأهازيج والأغاني الشعبية التي تحتوي على العديد من الأمور التي تعبر عن عاداتهم كأغاني الأعراس التي توضح مثلا عادة الحناء للعروس أو سهرات العريس، فالدبكات أيضا تعتبر من الفنون التراثية والرقص الشعبي[12].

كما ان التراث يضم أيضا الزخرفة والفنون التشكيلية التقليدية والتجريدية والفنون الشفاهية الأدبية. وهذا التراث يتوارثه الأجيال أيضا جيلا بعد جيل، والفنون الشعبية هي التي تميز شعبا عن أخر[13].

أهمية التراث وتأثيره الحضاري:

التراث هو كل ما وصل الى امة من الأمم وشعبا من الشعوب ممن سبقوهم من الأجداد والأدوات، والمعتقدات والملابس، والأفكار، حيث يتضمن التراث الكتب القدامى والاحتفالات، والمناسبات العامة، والأقوال المأثورة، والقيم، والآداب، والفنون، المستعملة والأبنية والعادات والتقاليد وغيرها من الأمور الأخرى[14].

والتراث ليس محصورا على شعب أو ثقافة معينة، بل يمتد ليشمل كافة المناطق الأخرى، وأهمها النطاق الإنساني الذي يجمع البشر كافة، فالتراث بهذا المعنى يمكن أن يعرف على أنه كل ما تتلقفه الأجيال عن الأجيال التي سبقتها، وكل ما ستورثه هذه الأجيال إلى الأجيال التي ستأتي بعدها, فالإنسانية جمعاء لها تراث عريق بدأ منذ خلق الله تعالى البشر إلى يومنا هذا الذي نحن فيه، وهو تراث ممتد الى ما شاء الله له ان يكون. يكتسب التراث صفة التراكم، وليس الحذف، فالجديد يبنى على ما هو قديم، ولا يهدمه وهذا هو أساس المعرفة ، إذا إن من أهم صفات المعرفة هي التراكم[15].

تكمن أهمية التراث في المقام الأول بأنه هو الذي يعطي لشعب من الشعوب هويته الخاصة التي تميزه عن الشعوب الأخرى، والتي بدورها تضع هذا الشعب في مصاف الشعوب التاريخية التي لها تاريخ عريق تحتفي به، والأجمل هو ان يكون هذا التاريخ العريق قد أسهم في تطوير الشعوب الأخرى ولا زال. أهمية التراث هي في مساهمته الكبيرة في تراكم المعرفة خاصة ما ورث من العلوم، فهذا الإرث هو إرث عظيم ليس لشعب من الشعوب فقط بل للإنسانية جمعاء. أيضا فإن التراث هو المحدد الأول والأخير لثقافة شعب من الشعوب وهو مما يسهم وبشكل رئيس في تكوين العقل الجمعي, ولكن يجدر التنبيه هنا إلى ان روح العصر قد لا تتحمل ولا تستوعب بعض ما يأتي في التراث، لهذا السبب فإنه ينبغي أن يتم عرض التراث على العصر، فإن توافق معه أخذ به وإن لم يتوافق معه تم الاحتفاظ به في الذاكرة الشعبية[16].

تأتي أهمية التراث أيضا أنه أساس الحضارة، فالحضارة والمدنية لا تعنيان إطلاقا أن التراث يعيق عجلة تقدمها, فالعديد من الأمم تعد في الصفوف الأولى عالميا مع احتفاظها بتراثها الجميل، وهذه رسالة لمن يخجلون من تراثهم ويودون دثره. فهذا الموقف من التراث هو بمثابة الانسلاخ من الجلد، وبمجرد أن ينسلخ الإنسان من جلده فإنه لن يكون قادرا على أن يرتدي جلدا أخر مما سيسبب وفاته[17].

إن الأهمية في معرفة التراث تعود الى ضرورة المعرفة بتاريخ المدنية التي نعيشها ومعرفة ارجاع كل اثر لدينا الى العهد او التاريخ الذي بنيت فيه لمعرفة الخصائص والعناصر التي ميزت الأبنية في كل فترة وذلك حتى نستطيع القيام بعمليات الصيانة والترميم والمحافظة على الآثار التي لدينا ولمعرفة طبيعة العناصر في تلك الآثار وفي حالة القيام بالترميم لمعرفة كيفية التعامل مع المبنى من حيث المواد المستخدمة او الطرق الهندسية سواء المعمارية او الانشائية او الفنية[18].

تعود أهمية التراث الى الأهمية في تعزيز الهوية الفلسطينية، فالهوية التي تجمع ما بين افراد الشعب او الامة لها تاريخ عميق وماضي ولها امجاد ولها ثقافة يعبر عنها التراث، التراث بما يحتويه من رموز معبرة عن الآم شعبنا ومشحونة بالمعاني والعواطف، حيث ان التراث يحتجز بتاريخ الامة وعواطف الروحية والقومية[19].

إن أهمية المعرفة بالتراث أيضا هي مرتبطة بشكل أساسي بالمحافظة على جذورها المتأصلة في الأرض، وقيمنا وثوابتنا صامدة في الأرض وهي دلاله على حقنا الشرعي في بلادنا وبمعرفتنا تكون لدينا القدرة على دحض أي محاولات لنسب هذه الأرض الى الكيان الصهيوني او محاولات نسب التراث الذي لدينا على انه جزء من تراثنا فهنا أهميه نضالية وطنية قومية.

ان المعرفة بالتراث تقودنا الى الاطلاع على عظمة التاريخ الذي لدينا والى روعه الحضارات التي سكنت في مدننا, مما يولد الدافع الذاتي لدينا لحماية هذه الاثار والمحافظة عليها فهنا يخلق نوع من الوعي الشعبي بأهمية الاثار الموجودة في مدننا وقيمتها بالنسبة لنا.

تدفعنا المعرفة بالتراث الى الاهتمام بالآثار وتحسين المناطق المحيطة بها فتصبح كمعالم اثرية تجتذب السياح والناس اليها مما يؤدي الى النمو الاقتصادي والحضاري وتنشيط الاقتصاد في بلادنا مما يؤدي الى رفع دخلنا الوطني[20].

يمكن القول ان التراث الحضاري هو كل ما يدل على التطور الحضاري للمجتمع والدولة من مختلف النواحي سواء الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو العمرانية، وغالبا ما تكون شاملة للشواخص والمباني أو حتى المواقع نفسها. ولذلك تعد ثروة قومية غير مختصة بجيل بعينه بل هي حق للناس جميعا ولمختلف الأجيال ولذلك تصنف على انها جزء من النفع العام، وتعتبر الشواخص والمباني الاثرية جزءا من التراث الحضاري لانها تمثل احدى فترات التطور الحضاري لانها تمثل احدى فترات التطور الحضاري في الدولة[21].

التراث بين الماضي والحاضر:

لدى طرح موضوع الثقافة على بساط البحث فلا بد لنا ان نتناول المركبين الأساسيين لهذه الثقافة واللذين يمثلهما التراث بصفته المركب التاريخي او ما يسمى بالجذور او الأصول. والمركب الثاني وهو كل ما ينضوي تحت الاحداث المعاصرة المتشكلة كمحصلة للمتغيرات التي شملت كافة نواحي الحياة وبخاصة تلك التي تخص كل جماعة إنسانية في معزل عن الأخرى من ناحية، وعبر قنوات اتصالها مع الاخرين من ناحية أخرى. ويهمنا هنا الاحداث غير المادية. ومما لا شك فيه ان دراسة ثقافة أية جماعة إنسانية من خلال مركب واحد مما اسلفنا هو بمثابة خروج على منطق الأشياء وجادة الصواب، اذا لا بد من الجمع بينهما[22].

وفي حديثنا هنا سوف نتناول المركب الأول للثقافة ونعني به التراث. والكلمة لغويا مشتقة من الإرث، او ما تركته الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة. والتراث ونقصد به هنا الشعبي بطبيعته يحمل صفات التراكمية والشمولية والجماعية وتنتفي عنه الصفة الفردية. ومصطلح التراث يكاد يكون مرادفا للتاريخ ان لم يكن هو الجزء الأهم منه، او انه هو الروح النابضة لهذا التاريخ والتي بدونها يصبح مجرد احداث عبثية. وكلا التاريخ والتراث يتحدان معا ليشكلا جذور اية جماعة إنسانية، ويفسران بالتالي سلوكيات هذه الجماعة في شتى الاتجاهات، ويلقيان مزيدا من الضوء على منظومة اهتماماتها ونظرتها للأشياء وعلاقاتها الإنسانية الداخلية في ما بين أبنائها من جهة، والخارجية مع الآخرين من جهة أخرى، مضافا الى كل ذلك مدى انفتاحها وانغلاقها وتشددها وتساهلها في قبول الآخر او رفضه، وتمسكها بعنديااتها[23].

وكل هذه الأساسيات تصب في النهاية في بوتقة تحديد شخصيتها الإنسانية والاجتماعية والسياسية والثقافية، وتفرز وتبرز معا شكل هويتها الانتمائية ومدى تمسكها وحفاظها عليه. ثمة مبررات كثيرة تدفع اية جماعة إنسانية للتنقيب عن تراثها والكشف عن كنوز إبداعاته وإعادة اضاءة فضاءات تاريخها التي حجبتها غيوم بعد المسافات الزمنية بين الحاضر والماضي، إضافة الى تراكمات شجون الحياة المعاصرة[24].

وفي اعتقادنا ان اول هذه الاعتبارات يتعلق بتجسيد الهوية الوطنية الانتمائية الى الوطن والتاريخ والجماعة الإنسانية نفسها والحفاظ عليها في وجه التيارات الثقافية المعاصرة التي تهدد ثقافات الشعوب النامية بابتلاعها او تشويهها او التعتيم عليها، او افقادها العناصر الحية فيها، وبالتالي برمجة هذه الشعوب على انها مجرد اعداد بشرية مجردة من العطاء والابداع والتفكير وإبداء الرأي بهدف فرض ثقافة التقليد والتلقي والاستهلاك عليها. وثاني هذه المبررات يخص الاعتزاز القومي والثقة بالنفس، ذلك ان التاريخ والتراث هما اللذان يمنحان اية جماعة إنسانية عراقتها وأصالتها وعمق تجربتها وغناها، وبالتالي اتساع مساحتها الزمانية المكانية. وهذا المبرر بحد ذاته من الأهمية بمكان كونه يشكل عاملا رئيسا في خلق الشعور الوطني بمعنى التمسك بالوطن والحفاظ عليه والتضحية من اجله. وثالث هذه المبررات ان التراث بحد ذاته ثروة اقتصادية يمكن استغلالها في مجالات وفعاليات معاصرة "في الهندسة المعمارية والبناء والأثاث واللباس والسياحة والأدوات والإبداعات الفنية الأخرى إضافة الى كونه يشكل العنصر الأساسي لكثير من المهرجانات السياحية والفنية. وفي حديثنا عن التراث أيضا لا بد لنا ان نأخذ كثيرا من الاعتبارات بعين الاهتمام. فالتراث ليس مجرد مخلفات مادية أيا كانت او أساليب حياتية او تقاليد او قوالب فنية او

ملابس. انه اعمق من ذلك بكثير، فهو روح الجماعة الإنسانية والطاقة المحركة والدافع الى الانطلاق والتطور والحفاظ على الهوية والانتماء والتمسك بالوطن. وان الاهتمام به يتعدى كونه مادة ترفيهية سياحية لدعم الاقتصاد السياحي من خلال مهرجانات موسمية وسنوية تقام هنا او هناك[25].

كما اننا من منظور تربوي لا نستطيع ان ندرس ابناءنا التاريخ دون التراث, فالتاريخ يكون وعاء مفرغا دونه، ذلك انه يمنح هذا التاريخ حيوية وطعما ولونا ومذاقا وشكلا, ثم اننا نفترض ان لا يعزل التراث في متاحف خاصة به وان يغلق عليه الى حين المناسبات التي اشرنا اليها سابقا. فالتراث يشكل جزءا من الحياة اليومية أيضا ويتدخل ويتداخل في مساراتها ويغذيها بطاقة الاستمرارية والتواصل. كما انه ليس بالضرورة الوقوف عند اشكاله القديمة وحرفية تقليدها، فهناك دائما إمكانيات للتطوير والحذف والإضافة والتطعيم والتلوين. وليس هذا يعني ان تكون حياتنا نمطا تراثيا ذلك انه من المستحيل ارجاع عقارب الساعة الى الوراء، وإنما ثمة إمكانية معقولة لحياة معاصرة ملونة بالتراث. وثمة اعتبار آخر يخص علاقة التراث المحلي الإقليمي لكل قطر عربي او إسلامي. اذا لا ينبغي بأي شكل من الاشكال ان يطغى التراث المحلي على التراث الشامل ونقصد به العربي الإسلامي الذي يفترض ان يكون هناك توازن بينهما. ان التركيز على العناصر المحلية الإقليمية في التراث يمكن ان تحمل معها مخاطر التقوقع الإقليمي، ونفترض بنا اننا نسعى من خلال التراث ان نضيف عاملا آخر موحدا لا مفرقا. ان احياء التراث والحفاظ عليه و"إيجاد مؤسسات له" بحاجة الى دراسات وتخطيط وإعداد طواقم إدارية وفنية واهم من ذلك تخصيص ميزانيات له، وإلا كان كل مجهود في هذا الصدد حرثا في البحر. ولعل أخير هذه الاعتبارات لا آخرها كون التراث في غفلة عن أصحابه الشرعيين او نتيجة عدم اكتراث واهتمام به او انشغال عنه في حيثيات الحياة المعاصرة وبهارجها يتعرض الى السلب والنهب والسرقة من قبل آخرين ينسبونه الى انفسهم كما تعرض جزء كبير ونفيس من التراث الفلسطيني[26].

ان الحديث عن التراث لا ينتهي عند هذه المقدمة العامة، فنحن في الوطن العربي والعالم الإسلامي لدينا كنوز ثمينة من التراث الذي شمل كافة الحياة الإنسانية، والذي كان نتاج تمازج دقيق ومتوازن بين العوامل الروحانية التي تمثلها العقيدة وبين الابداعات المادية الأخرى، والتي يمكن ان يخصص لها بحوث ودراسات مستفيضة. لكننا هنا نود ان نختم عن أن التراث الفلسطيني هو جزء لا يتجزأ من التراث العربي له طابعه المميز.

ان هذا التراث غني وشامل ومرتبط بالأرض التي منحت الانسان الفلسطيني هوية انتماء لها منذ القدم، وهو جدير بإحيائه والحفاظ عليه على طريق الانبعاث على خارطة الوجود الإنساني، كونه ذاكرة الشعب الفلسطيني، وكون فلسطين ليست مجرد مساحة جغرافية في خارطة العالمين العربي والإسلامي. انها مساحة شاسعة من تاريخ عربي إسلامي مجيد، وهي بأقصاها المبارك، وصخرتها المشرفة، وقدسها الشريف، مسرى الرسول الكريم ومعراجه، جزء لا يتجزأ من عقيدة سمحة، يدين بها ما ينوف عن المليار مسلم. وبالتالي فان مسؤوليات كل الجهات الثقافية تتعدى مجرد الاحتفاء به في يوم واحد الى إيجاد مؤسسات راعية ومطورة له في اطار كوادر علمية وفنية وميزانيات مخصصة. كما ان اخطر مسؤولية تقع على المناهج التربوية

في كل المراحل التعليمية، اذ لابد ان تكون هناك مناهج للتراث جنبا الى جنب مع مناهج التاريخين الفلسطيني والعربي. وبهذا الصدد فان دور الاعلام أساسي في ابراز التراث ونشره وحتى تسويقه ثقافيا[27].

كلمة أخيرة، ان الصراع على التراث والتاريخ في منطقتنا لا يقل أهمية عن الصراع على الأرض والماديات الأخرى بل هو جزء لا يتجزأ منها. والتراث الفلسطيني يستحق منا نحن احفاد مبدعيه ان نحافظ عليه وان نعيد له بهاءه ورونقه على طريق التواصل الذي هو مدخل الانتماء الى الانسان والأرض الوطن.

التراث بين المنحة والمحنة:

الإنسانُ مادةٌ وروح، أو جسَد وذاكرة، ونعني بالذاكرة: العقل والفكر والتاريخ، وهذا كله مستهدَف؛ فإنَّ فيه تهديدًا لمن يحاول صك "شرعيةٍ" ما زورًا، بل إنه الهدَف الأهم؛ لأنَّ الجسد وحده لا يخيف إذا محَوْنا أو شَوَّهْنا العقل أو الذاكرة، إذ يتحول الإنسان مجردًا من ذلك إلى آلة يُمكن استئناسها أو تسْييرها من قِبَل الآخر، أما مع العقل أو الذاكرة فالأمرُ مختلف؛ إذ يرفض الإنسان الاستئناس أو التسيير من ناحية، ويمتلك من ناحية أخرى قُدرةً غير عادية على بَعْث الحياة في الجسد، ونفخ الروح فيه للدِّفاع والمقاومة من ناحية أخرى، ويظل الجسد قادرًا ما دامت الذاكرةُ حيةً متوَثِّبة، فإذا ذهبتْ هذه الأخيرة أو طُمِسَت، أو شوِّهَت، أو عُبث فيها، شُلَّ الجسدُ، وتَيَبَّس، ومات. والحرب التي تدور الآن في فِلَسْطين ولا تزال حربان: حرب الأرض والناس، وحرب أخرى على الذاكرة؛ الأولى: سياسية، والأخرى: ثقافية. تَسْتَخْدم الرشَّاش والمدفع والدبابة والطائرة والصاروخ، والثقافيَّةُ: وسائلها القلم والمخطوط والكتاب والأثر والوثيقة، واختلاف الآلات والوسائل وحده يُقيم هذا الحد بين الحربَيْن، ويعطي لكلٍّ منهما اسمها، أما إذا نَظَرْنا إلى الغاية، فإنَّ الحربين حرب واحدة، هدفُها السيطرةُ على الناس ومصالحهم[28].

ولكلٍّ من الحربين سمات، أهمها:

أن الحرب السياسية ظاهرة، والثقافية خفية أو مخفية، الأولى: بسيطة، والثانية: مُركبة، الأولى: تحصد الأجساد، والثانية: تحصد العقول، الأولى: تنتهي فتَتَوَقَّف الرشاشات وتسكت المدافع، والثانية: مستمرة ما استمر وجود صاحب الحق. وانشغالنا بالأولى لا يجوز أن يلهينا عن الثانية؛ لأنهما قائمتان معًا، ففي الوقت الذي يقوم فيه جُندي صِهْيَوْني بإطلاق الرصاص من سلاحه على رأس فِلَسْطيني أو صدره، تكون هناك كتيبة من الجنود تدك مسجدًا أو تحرق كنيسة، أو تسوِّي مكتبة تاريخية بالأرض[29].

كما يكون هناك آخرون لا يلبسون ملابس عسكرية، ولا يحملون أسلحة، يقومون بعملٍ من نوع آخر، يُحَرِّفون كتابًا أو وثيقةً، أو يطمسون حجَّة أوقاف، فيرتكبون بين السطور والكلمات والأختام قتلاً من نوع مختلف، تزيد خطورته بالتأكيد على طلقة البندقية، ودانة المدفع، وقنبلة الطائرة.

لقد اورد القرآنُ الكريم لنا كيف كان بنو إسرائيل يقتلون الأنبياء بيدٍ، ويحرفون كتبهم السماوية باليد الأخرى، ذلك أن ذكاءَهم "الشيطاني" دلَّهُم على خطر الكلمة وتأثيرها، وأنَّ بإمكانهم عن طريقها أن يَصِلُوا إلى مآربهم، ولنا أن نَتَصَوَّر بساطة أن يعبثوا بحقوق الناس بعد أن اتخذوا كلمات الله هُزُوًا، فغيَّرُوها وبدَّلُوها[30].

إذًا؛ فمحو الثقافة جزءٌ من اللعبة السياسية؛ سعيًا لتحقيق مصالح المعْتَدي والمستكبر والمغتصب للأرض، وهذا يفرض علينا أن نفتحَ أَعْيُن المثقفين وجموع الأمة على ما يجري؛ ليَفْهَمُوا أصول اللعبة وأبعادها، ويهبطوا مِنْ أَبْراجِهم العاجية التي يعيشون فيها، ويُسْهِمُوا بدَوْرِهم في المواجهة، وهي من نوع الحرب الثقافية التي سلفت الإشارة إليها[31].

تمتلك فلسطين تراثًا كبيرًا، وغنيًّا، كمًّا ونوعًا وتنوُّعًا، يمثِّل جزءًا مهمًّا من ذاكرتنا العربية والإسلامية من ناحية، وجزءًا مهمًّا أيضًا من الذاكرة الإنسانية، ويتعرض اليوم لحرب متوحشة، تشنها إسرائيل، ونحن غافلون غفلةً غير مفهومة، متخلين بذلك عن واحد من أهم الأسلحة، ولا يخفى أنه سلاح ذُبِحْنَا به ونذبح، في الوقت الذي كان يمكن أن يكون في أيدينا، نَدْرأ به عن أنفسنا، ونثبت به حقوقنا. ويتَمَثَّل ذلك التراث في تلك الآثار المشاهدة القائمة على الأرض من عمائر ونقوش وحفريات، وما يتصل بها من قطع أثرية وأحجار وعملات وشواهد وصور، وتلك الوثائق التاريخية والشرعية التي تحكي حياة الناس وتقيد معاملاتهم وعلاقاتهم مع بعضهم ومع غيرهم، مع أنفسهم ومؤسساتهم وحكامهم، مع أصدقائهم وأعدائهم، وتلك الحجج والدفاتر والسجلات التي تؤكد الحق في الأرض والبيت والمسجد والكنيسة والمكتبة والمدرسة والسبيل والمنشأة. كما يَتَمَثَّل في ذلك التراث الفكري، الأدبي واللغوي، والتاريخي والعلمي، والمدون في مخطوطات تكشف عن نتاج عقول الناس على تلك الأرض. وليس المقصود بـ"تراث فلسطين" ما هو موجود فقط في فِلَسْطين، بل هو أكبر وأشمل من ذلك بكثير، فعطاء فلسطين ليس مقصورًا على الموجود داخلها، كما أنه ليس ما أنتجه أبناؤُها فقط، إنه يشمل من وجهة نظري:

1. تراثًا في فلسطين.
2. تراثًا عن فلسطين.
3. تراثًا من فلسطين
4. تراثًا لفلسطين

هذه الأنواع الأربعة معًا هي تراث فِلَسْطين أو ذاكرتها، وينبغي أن نبذل كل ما في وسعنا للعناية بها ورعايتها، وتوظيفها. ونلاحظ في القسمة السابقة دور حروف الجر، فلنبين ما نريد:

1. التراث في فلسطين: هو ذلك الذي ما زال موجودًا على أرضها، سواء كان لدى السلطة الفلسطينية، أو وضع عليه المحتل يدَه الآثمة، بغضِّ النظر عن موضوعه، وهو جزء من الذاكرة العربية والإسلامية التي هي الذاكرة الكلية لفِلَسْطين.

2. التراث عن فلسطين: هو كل ما يتصل بها، أيًّا كانت درجة الاتصال، لكنه خارجٌ جغرافيًّا، وقد يكون موجودًا داخل الوطن العربي، أو في العالم الإسلامي، وقد يكون بأقلام أبنائها، أو إخوتهم من العرب والمسلمين، ولكنه ليس بأقلام الآخرين.

3. التراث من فِلَسْطين: وأعني به ذلك الذي أفرَزَتْه تلك البقعة، سواء ارتبط بها أم لم يرتبط، أقصد سواء كانت فلسطين موضوعًا له، أم لم تكن، وأوضح أكثر فأقول: إنه نتاج أبناء فلسطين أو الذين تعلموا فيها، أو عاشوا على أرضها، من مخطوطات في المتاحف والأديرة، وعملات أثرية، ومكاتبات، وأدب وغيره، مما يعكس عبقرية المكان.

4. التراث لفلسطين: ويراد به ذلك المرتبط بفلسطين، ومصدره الآخرون في الماضي والحاضر، وإنما فصلته عن "التراث عن فلسطين"؛ لأنه محتاج إلى درجة أعلى من الحذر في التعامل معه، وإنما عددته ضمن تراث فِلَسْطين؛ لأن لها دورًا في إنتاجه بوصفها موضوعًا له، كما أن له دورًا في فهم ما يدور في عقول الآخرين عنها، وما يترتب على ذلك من توظيفه في خدمة الغاية التي نسعى إليها[32] .

فالتراثُ في فلسطين وعنها، بُعْده جغرافي، ولا يخفى أن هذا البُعد أو هذه الدائرة الجغرافية ليست مرتبطة بالحدود السياسية لفلسطين الحالية، وعليه فإن هذه الدائرة تتسع لتشمل المناطق المحاذية لفلسطين؛ إذ هي امتدادات طبيعية للدائرة الأساسية، فنحن لا نستطيع أن نغفل تخوم فلسطين، ونضرب مثلاً بجنوبي فِلَسْطين، حيث مكتبة دير سانت كاترين التي تحتوي على كثير من المخطوطات والوثائق، وفيها الكثيرُ من المعلومات المهمة المتصلة بالامتدادات البشرية لسكان فلسطين، وتحركاتهم ونشاطاتهم، ورحلاتهم[33].

وإذا كانت القضية هي "فلسطين"، التي نريد أن ننفذ إلى روحها عبر التاريخ والمكان والبشر لنحمي ذاكرتها وحقنا فيها، فإن مسألة اللغة تصبح وسيلة لا غرضًا، بمعنى: أننا ونحن نخدم فلسطين ونحميها، نلجأ إلى كل اللغات، ولا نقتصر على ما كُتِب بلغتنا القومية، وهذا يعني أن تتسع الدائرة اللغوية التي نتحرك في البحث والتوثيق فيها؛ لتشمل لغات عديدة تاريخية وحية، منقوشة ومكتوبة، ولنا أن نتصور حجم العِبْء الملْقَى على الأمة ورجالها المخلصين، فلدينا بالإضافة إلى العربية السريانيةُ والآرامية والبيزنطية أو اللاتينية، ولدينا التركية واليونانية والقبطية.. وغيرها.

وثمة أولويات في التعامل مع كل نوع من أنواع تراث فلسطيني الموجود داخل فلسطين أولويته أن ننقذه عن طريق المطالبة به وجمعه، وصيانته وترميمه، وتوفير المكان الملائم له؛ نظرًا للأوضاع التي يعاني منها. في حين أن أولوية التراث عن فلسطين تتمثل في جمعه في مكان واحد، ولفت الانتباه إلى ما يحتويه من معلومات هامة للإفادة منها، واستخراج ما يعضد الحق العربي في تلك الأرض. والتراث من فلسطين أولويته في درسه والتنقيب عنه أيضًا. والتراث لفلسطين أولويته في تبويبه وإتاحته للباحثين. ويجمع ذلك كله أننا محتاجون حقًّا إلى ما يمكن تسميته: "المكتبة الفلسطينية الكبرى"، التي تُشَكِّل ذاكرة كاملة لتلك الأرض، إنه عبء حضاري وتاريخي وقومي وديني ثقيل[34].

بدأت محنةُ التراث في فلسطين مع محنة أصحابه، في سنة 1948، فقد نزحت أعداد كبيرة من الفلسطينيين أو طردوا، وكان لهذا أو ذاك أثرهما الكبير على المجموعات الخطية التي تمتلكها الأسر، وتبلغ المحنة ذروتها، ففلسطين اليوم تحت الحصار، وتراثُها يَتَعَرَّض للإبادة، شأنه شأن أصحابه. ويهمنا هنا أن نخص بالحديث ذلك الجزء الموجود داخل فلسطين؛ نظرًا لأنه حالة حرجة، وهو موزع على المكتبات العامة والخاصة والجامعات والمساجد والكنائس والأديرة، وبعضه لا يزال مخبوءًا، وبخاصة في الكنائس والأديرة. ومهما يكنْ فإن عدد هذه الجهات لا يزال رقمًا مجهولاً، على الرغم من جهود عظيمة تُبذل

هنا وهناك، وتشير بعض التقارير والإحصاءات إلى ما يقرب من (24) مكتبة مُوَزَّعة على مختلف المدن الفلسطينية (11 مدينة)، منها (12) مكتبة في القدس؛ بعضها قديم، وبعضها مستحدث، وعدد لا بأس به من الرقم الإجمالي مكتبات خاصة، والباقي موزع على الجامعات والجمعيات والمؤسسات ومراكز البحث والأوقاف والبلديات والمساجد والأديرة والكنائس. وإنما قلنا: "رقم مجهول"؛ لأن الذين يرصدون المكتبات يغفلون عن مكتباتٍ اندثرت، مثل مكتبة حسن صدقي الدجاني، ومكتبة عائلة جار الله، ومكتبة عبدالله مخلص، وكلها في القدس، ومكتبة سعيد الكرمي في طولكرم. وإذا كان عددُ المكتبات مجهولاً، فإن عدد المخطوطات مجهول بدرجة أكبر، وتذكر التقارير أنه كان يقدر قبل الاحتلال بنحو خمسين ألف مخطوطة أصلية، لم يبقَ منها الآن سوى نحو ثمانية آلاف مخطوطة، على أحسن الفروض؛ أي: نحو 18 %، ونحن بالطبع نتحدث هنا عن المخطوطات، وليست لدينا بيانات عن السجلات والوثائق والأوقاف، فتلك مسألة أكثر تعقيدًا وخطورة. وأهم المكتبات وأغناها حتى اليوم : المكتبة الخالدية، ومكتبة المسجد الأقصى، ومكتبة دار إسعاف النشاشيبي، وهي جميعًا في القدس، وفي الآونة الأخيرة ظهرت مكتبات أنشأتها دولة إسرائيل، وأطلقت عليها أسماءها، أما ما فيها فهو للفلسطينيين؛ إذ هم أصحاب الأرض وما عليها، ومن تلك المكتبات: مكتبة جامعة حيفا، والمكتبة الوطنية، ومكتبة الجامعة العبرية (القدس الغربية)، وهذه الأخيرة فيها كَمٌّ لا بأس به من المصاحف والمخطوطات بالفارسية والتركية العثمانية والعربية (2143 مخطوطة)، ومتحف ذكرى مائير (بالقدس الغربية أيضًا)، والمتحف الإسرائيلي، ومكتبة جامعة تل أبيب[35].

إن محنة التراث في فلسطين تَتَلَخَّص في ما يلي:

1. الاستيلاء ووضع اليد عليه.
2. سرقته، فقد اختفتْ مجموعات منه من أماكنها الأصلية، وظهرتْ في أماكن أخرى في ظروف غريبة .
3. التضييق على أصحابه ومحاصرتهم –إذا صح التعبير– اقتصاديًّا، حتى لا يَتَمَكَّنوا من الإنفاق عليه والاهتمام به.
4. مصادرة الأوقاف التي كان ينفق منها عليه.
5. انتقاء بعض نصوص غير ذات القيمة علميًّا، والتركيز على ما فيها من إسرائيليات وأكاذيب، وترهات ومبالغات، لا يقبلها العقل، ولَيّ عنق المادة العلمية؛ لتَتَوَافَق مع الأغراض المشبوهة التي يرمون إليها[36]، وسنضرب مثالاً على ذلك. بدأت المحنة مع الكارثة سنة 1948، فقد سقطتْ مع الأرض أشياء كثيرة، منها عشرات المكتبات بما فيها من المخْطُوطات والوثائق والكُتُب والدفاتر، وكما فعل المغول من قبلُ في بغداد، فعلوا، وكان تركيزهم شديدًا على القدس، فقد وضَعُوا أيديهم على مخطوطاتها ووثائقها. وجاءتْ نكبة 1967 لتكتملَ فُصُول الرواية المأساوية، وتَمْتَدُّ الأيدي إلى الضفة الغربية وقطاع غزة، تعبث في كلِّ شيء. وتبدو تفاصيل الجريمة واضحة، فقد قامُوا بترويع الإنسان حتى ينشغلَ عن تراثه بالجهاد من أجل البقاء، فنهبوا واغتَصَبُوا، وأحرقوا ودمروا، واضطهدوا الإنسان وأَفْقَرُوه، وتجاوزوا ذلك كله إلى ما اعتادوا عليه عبر تاريخهم، فانتقوا بعض المخطوطات التي تخدم أغراضهم في سرقة الأرض والمقدسات، وتمجيد ماضيهم، وتعظيم أعمالهم، أو التي يمكن لهم أن يلْووا الكلام فيها عن وجهه، وهم –كما نعلم– محترفو تزويرها وتبديل وتزييف، وقد ازدادوا احترافًا وتمكُّنًا بعد أن أتيحت لهم فرصة امتلاك التكنولوجيا والسيطرة على وسائل الإعلام، بما فيها من قدرة غير محدودةٍ على تغيير الحقائق، وتبديلها وتزويرها وتحريفها، وإلباس الأكاذيب لبوس الصدق والرصانة والعلم. ولنستعرض بعض ما جرى لمكتَبَتَيْن فلسطينيَتَيْن[37] :

1- المكتبة الخالدية في القدس :

تُعَدُّ مِن أغنى المكتبات وأعرقها، وتذكر المصادر- كما سلف - أنَّ بها نحو ألفي مخطوطة، وعدة آلاف من الوثائق، اكتشفت تحت سقفها صدفة عام 1987، أثناء عمليات ترميمها، هذه المكتبة تعرَّضتْ لحرب حقيقية؛ عسكرية وقانونية واقتصادية، شنَّها الجيش الإسرائيلي وبلدية القدس، والمستوطنون المسلحون، واستمرَّتْ عقودًا (بدأت عام 1967). من الجيش جاء (غورين) كبير الحاخامات سابقًا، واحتل الطابق العلوي، واستقدم تلاميذ مدرسة باشيفا التلمودية المتطرفة، رافعًا راية إعادة بناء الهيكل في ساحة الحرَم القدسي. لكن المحاولات جميعًا باءتْ بالفشل، بفضل عناية الله، وصلابة الأسرة الخالدية، وبخاصة الآنسة (هيفاء بنت حيدر كامل الخالدي)، لقد قامت الأسرة بدءًا من مطالع الثمانينيات بجمع الهبات، ولجأتْ إلى المحاكم المحلية، وكوَّنت جمعية لأصدقاء المكتبة في أميركا، واستخدمت كل الوسائل الدبلوماسية والقانونية والإعلامية، واستعانتْ باليونسكو والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي، وبعض الدول والأفراد المنْصفين للحفاظ على المقتنيات[38].

2- المكتبة الأحمدية في عكا:

ليس فيها الآن سوى 80 مخطوطة، ولدينا شاهدٌ حي، فثمة مخطوطة فريدة (ضمن مجموعة منها أربعة عشر كتابًا ورسالة مخطوطة) من مقتنيات هذه المكتبة تحت عنوان: "فضائل البيت المقدس"؛ لأبي بكر محمد بن أحمد الواسطي المقدسي، (من رجال القرن الخامس الهجري)، ظهرت فجأة في مكتبة الجامعة العِبْرية. وقد كان منَ الممكن ألاَّ يدري أحدٌ بهذه السرقة، لولا أن باحثًا إسرائيليًّا يدعى إسحاق حسون تقدَّم بها محقَّقَةً إلى جامعته (الجامعة العبرية)؛ لينال بها درجة الماجستير عام 1969م، ولتصدر مطبوعة في عام 1979م عن الجامعة نفسها. القصة حكاها مفصلة الأستاذ عصام الشنطي في بَحْثٍ له نشر في مجلة معهد المخطوطات العربية، وسنَتَوَقف عند سؤالين:

لماذا اختار الباحث هذه المخطوطة؟ وكيف حقَّقها ودرسها؟

أما لماذا؟ فلأنها - شأنها أغلب كُتُب الفضائل - مليئة بالإسرائيليات، والأحاديث الغريبة، والضعيفة، والمنْكَرة، والموضوعة، والمكذوبة، والمبالغات والخرافات، والحكايات والأساطير التي يرفضها العقل، وترجع إلى أعمال القصَّاصين، بالإضافة إلى نصوص محرَّفة من التوراة، ومن خلال ذلك سعى إلى تمجيد تاريخ اليهود وتعظيم رجالهم.ولم يكن ذلك الباحث محقِّقًا ولا دارسًا، بل كان جنديًّا لقومه، يبرز ما يحبون، ويُخفي ما يكرهون، ويعبث بالنصوص، ويقتطع منها، ويركِّز على بعضها، ويلوي عُنُق بعضها الآخر، ليصل إلى أغراضه، ويخدم أهواءَه. وثمة جوانب أخرى للمحنة، أو وجه آخر لها، فإذا كان أولئك هم أعداء تُراثنا وذاكرتنا، ونحن نعرفهم وندرك أغراضهم، فإنَّ المفارقة الخطيرة أننا - نحن العرب والمسلمين - نقوم بدور في هذه اللعبة، ونسهم فيها. وأبرز تجلِّيات هذا الإسهام إهمال تُراثنا، وتركْه نهبًا للحشرات، والفطريات، والرطوبة والحرارة وفساد الهواء، حتى يصبحَ هشيمًا تآكلتْ أوراقُه وجلودُه، وتلاشتْ سطوره وكلماته، وضاع ما فيه من تاريخٍ وعلْم وحُقُوق. ويوازي ذلك وربما يزيد عليه أن يخيمَ علينا الجهل، فنظن أن احترام التراث يكون بإخفائه عن العيون، وإبعاده عن الأيدي، وتحويله إلى أحْراز وأحْجِبة، ومصدر للبَرَكة واستجلاب للخير، بدلاً من أن يكون مصدرًا للنُّور والعلم، وإحقاق الحق وإزالة الباطل.

وقريب مما سبق أن نبيعه للغرباء؛ طلبًا لحفنة من المال، لا نلبث أن ننفقها على متَعِنا. ويلحق بذلك ألاَّ نتخِذَ الاحتياطات اللازمة لحمايتِه، فيستولي عليه أعداؤنا الذين يدمِّرونه، أو يفيدون مما فيه وينسبونه لأنفسهم، أو يعبثون فيه ويُحَرِّفونه كما فعلوا بكتبهم السماوية، أو يقتطعون منه ما يخدم أغراضهم، ويقنعون العالَم بآرائهم المريضة، وحقوقهم الدعيَّة، ويُشَوِّهُون صورتنا في الوصف نفسه[39].

هي صورة قاتمة حقًّا، لكن ثناياها خيوط ضوء، لا نستطيع إغفالَها؛ حتى لا يكون كلامنا دعوة لليأس والقنوط، ونوعًا من الانهزام والهروب، خيوط النور هذه تَتَمَثَّل في الجهود التي بذلتْ وتُبْذَل هنا وهناك، وتصلح أن نبني عليها، ونؤسس صرحًا عاليًا يخدم تراث فِلَسْطين ويحتفظ بأرضها وناسها. لقد بدأتْ بذور الوعي بأهمية تراث فِلَسْطين في مطالع القرن العشرين في صورة جهود أفراد علماء، واتخذت طابع التعريف به، وعلى الصعيد المؤسسي كان هناك غياب تامٌّ، لعله يرجع إلى الاستعمار والانتداب وكارثة الكيان المصطنع الذي أعطوه الوعد المشؤوم، على أن ثمة وعيًا بالتراث في عمومه، تجلَّى في إنشاء معهد المخطوطات العربيَّة في إطار الجامعة العربية في عام 1946م، وقد التفتَ هذا المعهد إلى فِلَسْطين في بادرة تتجاوز البحوث والدراسات المتفَرِّقة، وتفوقها أهمية، وهي إيفاد بعثة تصوير، أنقذتْ جزءًا – ولو قليلاً – من تراث فِلَسْطين المخطوط، وكان ينبغي أن يتعمَّق هذا الاتجاه، لكن ذلك لم يَحْدُث. وهناك جُهد حقيقي، وإن كان متأخرًا ينبغي التوقُّف عنده، هو جهد الجامعة الأردنية، وإنما قلنا: "جهد حقيقي"؛ لأنه يتسم بثلاث سمات هامة:

أولها: الحجم: فقد قامت الجامعة بحملة تصوير واسعة، شملت الكثير من مكتبات فلسطين.

وثانيها: التنوع: فقد عُنيتْ بسجلات المحاكم الشرعية والأوقاف، ودفاتر الأحوال الشخصية، والرحلات الخاصة ببلاد الشام عمومًا، وفلسطين خصوصًا، وتقارير القناصل الإنجليزية والأمريكيين والألمان والفرنسيين.

وثالثها: الاتساع: فقد مدت الجامعة نظرها إلى خارج فلسطين، وبخاصة تركيا، وتحديدًا إستانبول وأنقرة، مركِّزة على جزء هام جدًّا من تراث فلسطين، هو السجلات والدفاتر العثمانية التي تخص فلسطين (250 ألف صفحة)، ونشرها بالتعاوُن مع المركز الإسلامي في إستانبول، كما عنيت بالصحف في القرنين التاسع عشر والعشرين، سواء الأهلية أو الرسمية.

وهناك جهود مهمَّة أخرى للمؤسَّسات الأردنية، مثل: مؤسسة آل البيت التي عنيت بالنقوش والحفريات جميًا وتبويبا، ومجمع اللغة العربية الأردني. وثمة جُهد إقليمي، هو جُهد المنَظَّمة العربيَّة للتربية والثقافة والعلوم، سواء بنفسِها أو عبر جهازها المتخصص (معهد المخطوطات العربي)، فقد تَبَنَّتْ مشروعًا لصيانة التراث الثقافي في القدس، وعقدتْ ندوة خاصة بتراث فِلَسطين، وأثارتْ موضوع هذا التُّراث وساندتْه غير مرة، عبر الهيئات والآليات التي تقوم عليها، مثل الهيئة المشتركة لخدمة التراث العربي، ودوراتها المتخصِّصة (دربتْ عددًا من أبناء فِلَسْطين على ترميم المخطوطات وصيانتها)[40].

وقد بدأت المراكز والمؤسسات الخاصة الشبيهة تقوم بدور لا يقل أهمية عن المؤسسات الرسمية والإقليمية. نحن الآن بحاجة الى رسم خريطة واضحة التضاريس والمعالم لتراث فلسطين حملة تصوير شاملة للتراث بمفهومه الواسع داخل فلسطين اولآ، ثم في تخوم فلسطين، ثم في المكتبات العربية والعالمية .

فهرس شامل لتراث فلسطين بمفهومه الواسع أيضًا.

مكتبة مركزية عربيَّة لتراث فلسطين، ولكل ما نشر عنها.

مؤسسة بحثيَّة عربية تُعنَى بهذا التراث، وتوظِّفُه لتأييد الحق العربي

وإذا ما صدقت النوايا، وسخا الجهد، وتوحدت الأيدي، نجح السعي.

إننا لسنا بحاجة إلى أكثر من حجر مثقف، كذلك الذي يحمله طفلٌ فلسطيني، فأطفال فلسطين اليوم هم الطيور الأبابيل التي تحمل حجارةً من سجيل، ومثل هذا الحجر "السجيلي" أقوى مما نتصور؛ لأنه يخترق قُرُونًا من الحضارة والعطاء والعلم، مثل هذا الحجر قادر بعَوْن الله على مواجهة مخربي الحضارة ومزَيفي التاريخ. والمعادلة بسيطة سهلة، مفاتيح حلها بأيدينا: إيمان بالحق، وشيء من الصبر[41].

الخاتمة:

يعتبر التاريخ في فلسطين أحد ميادين الصراع الأيديولوجي الرئيسة والمعركة المحتدمة الآن في القدس هي واحدة من فصول هذا الصراع المرير. ويتضح ذلك من خلال الاستغلال الواسع لنتائج علم الآثار من قبل الحركة الصهيونية لتبرير الادعاءات الأيديولوجية على أرض فلسطين، والتي اتخذت كذريعة لتجريد الشعب الفلسطيني من أرضه وتاريخه معاً.

جرت تنقيبات أثرية إسرائيلية منظمة وإنقاذية في آلاف المواقع الأثرية الفلسطينية، في انتهاك صريح للقانون الدولي، وكان الهدف من التنقيبات إعادة كتابة تاريخ هذه المواقع بما يخدم الادعاءات الاستيطانية الصهيونية في فلسطين من خلال خلق صلة بين الماضي والحاضر، وتسخير موارد هائلة لكتابة رواية تاريخية أحادية الجانب تبرر بشكل ذرائعي المشروع الاستيطاني على أرض فلسطين. أما الوجه الآخر للنشاط الأثري الإسرائيلي فقد تجلى في نهب الموارد الأثرية ونقلها أو الاستحواذ عليها في نطاق المستوطنات والمعسكرات الإسرائيلية أو ضمّها بالجملة خلف الجدار العنصري الفاصل. وقد أدت عمليات الاتجار غير القانوني والنقل غير المشروع للممتلكات الأثرية الفلسطينية إلى تدمير كبير للمواقع الأثرية الفلسطينية، من خلال تحفيز عمليات التنقيب غير الشرعية.

تعرّض التراث الثقافي الفلسطيني لعملية تدمير شبه منظمة على مدار سنوات الاحتلال، وتمثلت بمحو آثار ما يزيد عن خمسمئة مدينة وقرية فلسطينية في الفترة ما بين 1948 و1952، وتواصلت هذه العملية بعد احتلال الضفة الغربية وغزة سنة 1967، وتركزت في مدينة القدس في محاولة لتغيير الطابع التاريخي لهذه المدينة. وفي الاجتياحات الإسرائيلية المتكررة للأراضي الفلسطينية تعرّضت المدن التاريخية لاستهداف مقصود، ويعتبر حصار كنيسة المهد وتدمير البلدة القديمة في نابلس شاهدين على عمليات التدمير المتعمد سنة 2002. وفي الحرب الأخيرة على غزة جرى استهداف مقصود لمواقع التراث الثقافي والمباني العامة والدينية والمؤسسات التعليمية والبنية التحتية.

كما أدى بناء الجدار الفاصل في عمق الأراضي الفلسطينية إلى السيطرة المباشرة على حوالي 50% من الموارد الأثرية، وفصل مدينة القدس عن محيطها، وتسبب أيضا في تدمير كارثي للمشهد الثقافي.

وتم توظيف العمل الأثري لخدمة السياسة الاستيطانية في الأراضي الفلسطينية، وهناك الكثير من الحالات التي تحولت فيها المخيمات الأثرية إلى نقاط استيطانية ثابتة كما هو الحال في القدس وسلوان و دير المرصرص وخربة سيلون وخربة سوسيا و كفر قدوم والخان الاحمر. ثم السيطرة على الأماكن الدينية الإسلامية والمسيحية، كما هو الحال في محيط المسجد الأقصى والحرم الإبراهيمي في الخليل وقبر راحيل ومقام يوسف ومسجد النبي صمويل. وتعمد سلطات الاحتلال إلى تغيير أسماء هذه المواقع بهدف إضفاء طابع تاريخي عليها.

ويشكل التراث الفلسطيني خاصة وثقافته عامة، هدفا رئيساً لمحاولات الطمس والايذاء والتعتيم والمسح وتتخذ هذه الممارسات مسارين او طريقين متوازيين:

الأول: التهويد او إضفاء الصبغة الإسرائيلية على هذا التراث.

الثاني: الغاء فلسطينية هذا التراث وعروبته وإضعافه ومحوه.

وكل ذلك لهدفين متزامنين:

خلق صلة ما بين اليهود والأرض وكسب الاعتراف العالمي بهذه الصلة.

اضعاف الصلة بين الشعب الفلسطيني وبين ارضه، بل بترها كليا وقطعيا، وتقوم بهذه الممارسات هيئات كثيرة ومتعددة من وزارات ومكاتب حكومية رسمية او شبه رسمية الى مؤسسات وجهات شعبية وعلمية واجتماعية من كل صنف ولون ومن الأمثلة على ممارسات الاحتلال في المجال المادي ما يأتي:

1. هدم مئات القرى والمدن وتدميرها في عام 1948م وتشريد أهلها ومسح كل اثر لها وإقامة المستوطنات اليهودية على أراضي القرى العربية المدمرة.
2. بعث الأسماء التوراتية لاطلاقها على الأماكن والمواقع المختلفة وإعطاء أسماء عبرية جديدة لطمس كل ما يذكر بعروبة فلسطين.
3. الاعتداء على المقدسات الإسلامية والمسيحية كالحريق الذي نشب في المسجد الأقصى عام 1969 وحوادث السطو على كنيسة القيامة.

إن إسرائيل تعرض في متاحفها لافتة تحت عنوان"إسرائيل عبر العصور" ظنا منها أن احتلال التاريخ يصبح حقيقة، فلم تترك إسرائيل شيئاً إلا و أدخلت عليه التزوير والتحريف، فالمعطى الجغرافي الأول الذي قامت عليه إسرائيل أنها ادعت إن فلسطين أرض بلا شعب إلى تزوير التاريخ والعقائد والثقافات ومصادرتها فلم تترك إسرائيل عنصراً "ثقافياً" في الشرق إلا ونسبته إلى نفسها. وبالتالي فان موضوع التراث الثقافي من المواضيع الحساسة ليس فقط بسبب قيمتها الأثرية والعلمية، ولكنها شاهداً حياً للهوية الفلسطينية وحقها التاريخي على أرض فلسطين، لأن الصراع على التراث والتاريخ في منطقتنا لا يقل أهمية على الصراع على الأرض والماديات الأخرى، بل هو جزء لا يتجزأ منها. والتراث الفلسطيني يستحق المحافظة عليه وأن نعيد له بهاءه ورونقه على طريق التواصل الذي هو مدخل الانتماء إلى الإنسان والأرض والوطن.

الهوامش:

1- Al-Houdalieh, Salah. Archaeological heritage and related Institutions in the Palestinian Territories 16 years after signing the Oslo Accords, Present Pasts Journal 2 (2010), Pp 31-53.

2- الحمد، جواد, في الذاكرة الانسانية, الشعب الفلسطيني ضحية الأرهاب والمذابح الصهيونية، عمان: مركز دراسات الشرق الأوسط, 1995, ص 56.

3- الخالدي، وليد, كي لا ننسى, مؤسسة الدراسات الفلسطينية, بيروت, 1998, ص 32.

4- سوكاح، زهير, الهوية بين الكتابة التاريخية والذاكرة الجمعية نحو نموذج ذكرى فلسطين, مجلة رؤى, العدد 27, رام الله, 2008, ص 41.

5- الحمد, جواد, المرجع السابق, ص 60

6- شعث، شوقي, الآثار وخطرها على القضية الفلسطينية, حلب, 1976, ص 87.

7- سيد، احمد محمد علي عباس, الممتلكات الثقافية بين المواطنة والاغتراب, في أورماتو, العدد الرابع, مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية, السعودية, 2001 , ص 101

8- سوكاس, زهير, المرجع السابق, ص 44

9- كناعنة، شريف, "مخطط طمس وجه فلسطين", في التراث جذور وتحديات, مطبعة روان, القدس, 1991, ص 81-82.

10- الخالدي, وليد, المرجع السابق, ص 35-36

11- هارلمبس, هولبورن, سوسشيولوجيا الثقافة والهوية, ترجمة حاتم حميد محسن, دار كيوان, دمشق, 2010, ص 51-53.

12- طه، حمدان, التراث الثقافي والهوية الفلسطينية, في الهوية الفلسطينية إلى أين؟, جمعية إنعاش الأسرة, مركز دراسات التراث والمجتمع الفلسطيني, البيرة, 2009, ص 71-72

13- كناعنة، شريف وآخرون, الملابس الشعبية الفلسطينية, جمعية إنعاش الأسرة لجنة الأبحاث الاجتماعية, فلسطين, 1982, ص 34-35 .

14- طه, حمدان, المرجع السابق, ص 76-79

15- نعيرات، حسن, الفنون الشعبية الفلسطينية, ط1, وزارة الثقافة الفلسطينية وجامعة النجاح الوطنية, 2011, ص 27-29.

16- هارلمبس, هولبورن, المرجع السابق, ص 55-56

17- طه, حمدان, المرجع السابق, ص 81-83

18- نعيرات، حسن, المرجع السابق, ص 92

19- طه، حمدان, إدارة التراث الثقافي في فلسطين, في المشروع الثقافي الفلسطيني وإستراتيجية المستقبلية, المجلس الأعلى للتربية والثقافة, القاهرة, 2003, ص 172-178

20- شلبي، صلاح عبد البديع, حق الاسترداد, دون مطبعة, 1983, ص 109

21- كناعنة، شريف وآخرون, المرجع السابق, ص 44-45

22- الدباغ، مصطفى, بلادنا فلسطين, ج2, الديار المقدسة, دار الطليعة, بيروت, 1988, ص 67-68

23- سيد، احمد محمد علي عباس, المرجع السابق, ص 103

24- سلحوت، جميل, النشاط الثقافي في القدس, منشورات منظمة التحرير الفلسطينية, رام الله, 2005, ص 77-79.

25- Amensty International. Israel and the Occupied Palestinian Territories Enduring occupation. Palestinians under siege in the West Bank, 2007, Pp. 23-26.

26- قاعدة بيانات التراث الثقافي, دائرة الآثار والتراث الثقافي, وزارة السياحة والآثار, 2009.

27- كناعنة، شريف, الدار دار أبونا, مركز القدس العلمي الدارسات الفلسطينية, القدس, 2000, ص 48

28- سيد، احمد محمد علي عباس, المرجع السابق, ص 106

29- الكحلوت، محمد, المخططات الصهيونية وخطرها على المدينة المقدسة, مؤسسة القدس, غزة, 2009, ص 92-95

30- كناعنة، شريف وآخرون, المرجع السابق, ص 83-84

31- عوض، ريتا, التراث ما بين سياسات الحفظ والتسيس, مجلة الدراسات الفلسطينية, العدد 94, 2013, ص 69-72.

32- صالح، محسن, دراسات في التراث الثقافي في المدينة القدس, مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات, بيروت, 2009, ص 87-89

33- سعيد، إدوارد, الإختلاق, الذاكرة والمكان, ترجمة رشاد عبد القادر, عن مجلة الآداب الأجنبية, العدد 104, اتحاد الكتاب العرب, دمشق, 2000, ص 27-30

34- حمودة، أحمد, موسوعة المدن الفلسطينية, ط1, دار الثقافة, منظمة التحرير الفلسطينية, دمشق, 1990, ص 101-107
35- عوض، ريتا, المرجع السابق, ص 68-71
36- البرغوثي، عبد اللطيف, بين التراث الرسمي والتراث الشعبي, مجلة الصامد, العدد33, 1987, ص67-68, ص 88-89
37- حمادنة, آثار فلسطين, دار منية, دمشق, 1983, ص 40-42
38- حمودة، أحمدو المرجع السابق, ص 56
39- البشتاوي، محمد, الهوية الفلسطينية في مائة عام (1907-2007) الزرو نواف،241, الهولوكوست, 2009, ص 113
40- صالح، محسن, المرجع السابق, ص 47
41- شعث، شوقي, خطط استلاب تراثنا الفلسطيني ومؤسساته. دمشق, 2008, ص 49-52

كل الحقوق محفوظة